

نحو قراءة كونية لكتاب الله

الدكتور محمد السيد الجليند

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب
وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431 هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونياً رمضان 1439 هـ / 2018م

نحو قراءة كونية لكتاب الله

الدكتور محمد السيد الجليند (*)

تحتاج الأمة الإسلامية إلى مؤلفات ترشدها إلى العلوم الكونية التي نبه إليها القرآن الكريم باعتبارها مفتاحاً للنهضة والتقدم الحضاري، وباعتبارها علوماً شرعية نتقرب بها إلى الله.. إن اهتمام القرآن بعالم الشهادة يعتبر دعوة ربانية لكل ذي عقل ليبحث ويكتشف ويحسن توظيف الكون أداءً لأمانة الاستخلاف.

تمهيد:

إنها فرصة طيبة أن تجيء هذه المناسبة على موعد مع الصحوة التي تعيشها الأمة الإسلامية كرد فعل لحالة الاستضعاف المصاحبة للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي شرقاً وغرباً؛ نعم إنها فرصة طيبة لكي نحيي الأمل المفقود، ونعيد إلى الأمة الوعي بالذات المستتلة، أن تعيد الأمة قراءة كتابها الكريم بوعي وتدبر وفقه لما تقرأ.

وسوف أقتصر في كلمتي على الإشارات القرآنية إلى عالم الشهادة، وكثرة هذه الإشارات، مع غفلة المسلمين عنها، إنها دعوة لكي نقرأ القرآن الكريم قراءة كونية نقف خلالها على عناية القرآن الكريم بالكون ومفرداته باعتبار ذلك مفتاحاً لنهضة الأمة، وباعتباره تكليفاً شرعياً بالأمر الإلهي، فضلاً عن أن قراءة الكون واكتشاف قوانينه مقام من مقامات التعبد والتقرب إلى الله كالصلاة والزكاة، ففي عالم الشهادة تتجلى كلمات الله الكونية (كن) في شكل القوانين والحقائق العلمية؛ والمسلم

(*) باحث أكاديمي، أستاذ الفلسفة الإسلامية جامعة القاهرة (مصر).

مكلفٌ شرعاً بالكشف عنها والإفادة بها.

وفي عالم الشهادة تتجلى سنن الله في انتظام الممالك وانهارها؛ والحاكم المسلم مكلفٌ باكتشاف هذه السنن من وقائع التاريخ، ليعرف أسباب انتظام الممالك وأسباب انهيارها، وهي تدور بين تحقيق العدل وانتفاء المظالم وصون الحقوق وأدائها لأصحابها والحفاظ عليها.

وفي عالم الشهادة تتجلى للمفكرين والفلاسفة صفات الخالق وآثارها في صنعه من الحكمة والإتقان والقدرة والعلم ... مما ينتفي معها القول بالصدفة أو العبثية.

وفي عالم الشهادة تتجلى مظاهر عناية الله بالإنسان، ورحمته به، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك كله، وكلف المسلم بمعرفته كمدخل واقعي للتعرف على الله.

إن اهتمام القرآن بعالم الشهادة يعتبر دعوة ربانية لكل ذي عقل أن يتأمل ويبحث ويكتشف ويسخر ويعمر ويحسن توظيف الكون أداءً لأمانة الاستخلاف، ووظيفة ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾ .. فهل أجاب المسلمون دعوة الله لهم للبحث العلمي في عالم الشهادة؟

ألا فليعلم المسلمون أن مفاتيح النهضة التي ينشدونها تكمن هاهنا، في إجابة الدعوة القرآنية للعلم الكوني.

ألا فليعلم المسلمون أن قاطرة التقدم تكمن هنا، في دعوة القرآن للأخذ بمفاهيم العلم الكوني وإنتاج المعرفة.

ألا فليعلم المسلمون أن قراءة الكتاب المنظور أمر إلهي نزل به كتاب الله المسطور ...

والسؤال المحير: لماذا تخلى المسلمون عن قراءة هذا الكتاب الكوني، وتركوه لغيرهم، فقرأوه واحتكروا قراءته وحرموا علينا الإفادة منه؟

لماذا تركنا أنفسنا عالة على غيرنا، نتسول منه لقمة الخبز؟ يتحكم بها

في مصيرنا كما نتسول منه العلوم الكونية؟

إن هذه الدراسة المتواضعة والسريعة أشبه بالآهات التي ينفثها العليل تعبيراً عن إحساسه بالألم يعتصره من وضع الأمة الإسلامية وتخلفها العلمي والحضاري في الوقت الذي تدين بدين العلم، وتقرأ فيه كتاب ربها، الذي يجعل العلم فريضة، وتمتلك فيه مقومات النهضة من العقول الواعية والأرض والثروة والأيدي العاملة، ومع كل هذه المقومات الحضارية يؤثرون التسوّل من على موائد اللئام، ابتداءً من رغيف الخبز وحبّة القمح، وانتهاءً بالآلة والمصنع! أليس في الأمة رجل رشيد، يوجّه أصحاب الأموال إلى تأسيس مراكز علمية تقود الأمة إلى المستقبل؟

أليس في الأمة من يملك الإرادة الفاعلة لتحويل الخطب العصماء وقرارات المؤتمرات إلى عمل علمي تجني الأمة ثمرته؟ أليس في الأمة مسؤول يحوّل إرادة العلماء وجهودهم إلى طاقة فاعلة، فنأكل مما نزرع، ونلبس مما ننسج، ونصنع أدواتنا بأيدينا؟ إنها قضية أمة وليست قضية فرد، وينبغي أن يتحمل مسؤوليتها أصحاب القرار السياسي وأصحاب الكلمة من العلماء. والله من وراء القصد.

بين آيات الله القولية وآياته الفعلية

نريد في هذه الدراسة أن نعرض موقف القرآن الكريم من العلوم الكونية التي جسدها في حديثه عن عالم الشهادة، ونقارن بينه وبين عرض القرآن لمسائل الاعتقاد على المؤمن، وهي كلها مسائل تنتمي إلى عالم الغيب بينما تنتمي مسائل العلوم الكونية إلى عالم الشهادة. ثم نترك للقارئ الحرية في المقارنة التي أراها ضرورية بين الموقفين.

أ- موقف القرآن من عرض قضايا العقيدة ومقصوده منها،

وكيف كان عرضه لها مجملاً بعيداً عن التفصيلات والتفريعات التي وجدناها في علم الكلام، ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين.

ب- موقف القرآن الكريم من عالم الشهادة ومقصوده من الحديث عن مفردات هذا الكون وعرضها على عقل المؤمن، ولماذا ختم آياته الكونية بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: 221)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 99)، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (الأنعام: 65). ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين أيضاً، لنرى الفرق الكبير بين الموقفين، كيف كان حديث القرآن عن عالم الشهادة أكثر تفصيلاً وحديث المتكلمين عنه أكثر إجمالاً، وكيف كان حديث القرآن عن مسائل العقيدة مجملاً بعيداً عن التفصيلات، بينما كان حديث المتكلمين عنها أكثر تفصيلاً وتفريعاً.

ج- ثم لابد من طرح السؤال: ألسنا في حاجة إلى إعادة القراءة لعلم الكلام على نحو يحقق مقاصد القرآن وأهدافه من حديثه عن عالم الشهادة وحديثه عن عالم الغيب ومسائل الاعتقاد معاً؟ وكيف جاء حديث القرآن عن مسائل الاعتقاد مجملاً بعيداً عن التشقيق والتفريع وإثارة الخلافات في الوقت الذي كان حديث المتكلمين عنه يميل إلى التفصيلات والتفريعات التي أثارت الشقاق والخلاف بين الفرق الإسلامية؟

إن مطلوب القرآن وأهدافه من الحديث عن عالم الغيب عموماً ومسائل العقيدة خاصة هو الإيمان بها والاعتقاد فيها والاستدلال على صحتها دون البحث فيها أو تفصيل القول فيها لعلم الله السابق أن العلم بتفصيلاتها فوق

مدارك العقول، ولذلك لم يطلب القرآن من المؤمن أن يبحثها بمنطق العقل ليعرف كنها أو كيفها أو حقيقتها، وكفاه من العقل أن يستدل به على صحة الخبر الذي جاء به الوحي عنها، فإذا ما صح له الخبر عن ذلك الغيب فقد وجب الإيمان به، ما دام قد صح عنده دليل صحة الخبر في نفسه.

هذه الأسئلة وغيرها تمثل المحور الأساس لهذه الدراسة المتواضعة التي أرجو من طرحها أن أفتح الباب لطلاب العلم أن يناقشوها بشيء من الأناة والتروي يحدوهم نبيل المقصد وتصحيح المسار، إن شاء الله.

- الحاجة للقراءة:

تحتاج الأمة الإسلامية في عصرنا الراهن أن تقرأ؛ القرآن الكريم قراءة كونية تضاف إلى القراءات المتعددة التي قام بها علماءنا، قديماً وحديثاً، فلقد امتلأت المكتبة الإسلامية بكتب التفسير، التي اهتمت بالقراءة الفقهية والبلاغية والنحوية للقرآن الكريم، لكننا نحتاج الآن بالإضافة إلى ذلك مؤلفات تهتم بالقراءة الكونية لكتاب الله، مؤلفات ترشد الأمة إلى العلوم الكونية التي نبه إليها القرآن الكريم باعتبارها مفتاحاً للنهضة والتقدم الحضاري، وباعتبارها علوماً شرعية نتقرب بها إلى الله، ونتعبد بها في محراب العلم، كما نتقرب إليه سبحانه بالصلاة والصيام.

لقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ بنوعين من الآيات:

آيات الله المقروءة؛ القرآن الكريم، وكانت أول آية فيه تشير إشارة واضحة إلى قراءة آيات الله الكونية: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: 1- 3)، جاء الأمر بالقراءة المباشرة للكون: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، وأن تكون القراءة باسم ﴿رَبِّكَ﴾؛ لأن الخلق والمخلوق من متعلقات الربوبية، نزلت الآية الأولى من القرآن الكريم: ﴿أَقْرَأْ﴾ وهي آية

الله القولية لتأمرنا بقراءة آيات الله الفعلية الكونية ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، وتأمرنا بأن يكون الكون، الذي خلقه الله، موضوعاً للقراءة العقلية، مفعولاً للفعل ﴿أَقْرَأْ﴾، وفي ذلك إشارة مباشرة إلى ضرورة قراءة الكون الذي هو (آيات الله الفعلية) وتتقرب إلى الله بقراءة الكون تماماً كما نتقرب إلى الله بقراءة القرآن الكريم الذي هو (آيات الله القولية)، وأن الربط بين القراءتين مطلب قرآني وأمر إلهي: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

والقرآن الكريم قد سمي هذا الكون آية، وسماه آيات، وسمى كل جزء فيه آية، كما سمي القرآن نفسه آية، وسمى كل جزء فيه آية، ومعلوم أن الآية القرآنية نحن مطالبون بتلاوتها، والتقرب إلى الله بالاستماع إليها، وحسن تلاوتها، وتدبر معانيها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (□).

والقرآن الكريم هو الذي عرض علينا آيات الله الكونية، وأمرنا بحسن قراءتها والتأمل فيها باعتبارها آيات الله الفعلية، وباعتبارها التجريبية العملية لتطبيق سنن الله في كونه، وباعتبارها مجرى قوانينه في التعمير والتسخير، تعمير الأرض كما أمر بذلك القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61)، وتسخير الكون لصالح الإنسان: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (لقمان: 20).

وهاتان الوظيفتان (التعمير والتسخير) لا يمكن القيام بهما إلا إذا أحسن المسلم قراءة آيات الله الكونية، كما أمرنا بذلك القرآن الكريم، وأن

(1) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

تكون قراءة عالم الشهادة باسم ربك الذي خلق، أن تكون قراءة عالم الشهادة المخلوق باسم ربك الخالق. وليس باسم المادة، ولا باسم الصدفة، ولا باسم الطبيعة، ولا باسم الأقوال العبثية، وكما أن قراءة الآيات القولية أمر إلهي نتقرب به إلى الله فإن قراءة آيات الله الكونية أمر إلهي كذلك ينبغي ممارستها تقرباً إلى الله، ولا ينبغي أن يفهم أحد أن قراءة أحدهما تكون بديلاً عن الآخر لإقامة النهضة؛ لأن آيات الله المقروءة التي نزل بها الوحي على قلب النبي ﷺ هي التي أمرت المسلم بقراءة آيات الله المنظورة في هذا الكون، ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم إلى عالم الشهادات؛ ليكون موضع تدبر وتذكير وتذكر وتفكير وتفكير، ليكون النظر في هذا العالم المشهود بالحواس مدخلاً للتعرف على الخالق من خلال التعرف، بأسلوب علمي ومنهج دقيق، على صنعته ومظاهر التدبير والتقدير، وظواهر ربط الأسباب بالمسببات، حيث يرون في قانون السببية إشارة إلى حكمة الخالق فيما خلق، وحسن ربط الأسباب بالمسببات بمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، وبذلك يكون بين يدي المسلم كتابان للتعرف على الله، وعلى قوانينه، والتعرف على تجليات صفاته العليا وأسمائه الحسنى.

الكتاب الأول منهما القرآن الكريم، هذا الكتاب المقروء، والذي يشير في آياته الكريمة إلى المنهج الرباني، الذي وضعه الخالق؛ لتستقيم به حياة المسلم على مستوى علاقته بنفسه، وعلى مستوى علاقته بالمجتمع، وعلى مستوى علاقته بالكون وما فيه، ثم على مستوى علاقته بالله رباً خالقاً وإلهاً معبوداً، وذلك من خلال أوامر القرآن ونواحيه ووصاياه الأخلاقية، ومن خلال القصص الواردة في القرآن؛ لتكون بمثابة الدرس العملي؛ لنستخلص منها العبرة التاريخية، التي نعيش بها حاضراً، ونستضيء بها لمستقبلنا.

الكتاب الثاني، وهو كتاب الله المنظور، هو هذا العالم الكوني، هو عالم الشهادة، من سمائه إلى أرضه، بما فيه من نجوم وشموس وأقمار وكواكب ومجرات، وبما في الأرض باطنًا وظاهرًا، من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والحشرات، وما علمناه من هذا العالم مما هو خاضع لمداركنا الحسية والعقلية، وما غاب عنا مما لم ندركه من هذا العالم. كل ذلك آية وآيات محسوسة لنا ومنظورة لأعيننا، وكما أن كتاب الله المسطور والمقروء آية وآيات نعيشها بقلوبنا وعقولنا، فإن الكون هو كتاب الله المنظور بحواسنا الخاضع لسلطان عقولنا، وهذان الكتابان يرتبط أحدهما بالآخر برباط وثيق، أشار إليه القرآن الكريم في العديد من آياته الكريمة. وكتاب الله المقروء القرآن الكريم هو الذي أمرنا بضرورة قراءة كتاب الله المنظور، وهو الذي سماه آية، وسمى ما فيه من مظاهر وظواهر آيات، وأمرنا بقراءة هذه الآيات بإعمال العقل فيها تدبراً وتأملًا؛ لنحسن تسخيرهِ وتعميره لصالح الإنسان.

- كتاب الله المنظور:

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل منه في مكة المكرمة، ومكث الرسول ﷺ بها ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى دين الله، ويبلغهم أصول العقيدة الإسلامية، التي تأسست أركانها وتم بناؤها في مكة، وكان تأسيس العقيدة الصحيحة هي الهم الأكبر الذي شغل به الرسول ﷺ في مكة؛ لأن بناء العقيدة الصحيحة في قلب المؤمن هي أساس البناء السليم للفرد وللمجتمع معًا؛ لكي يصبح القلب متفتحًا لقبول أوامر الله ونواهيه من الصلاة والصيام والزكاة والحج والانتهاة عن كل ما نهى عنه، وما لم

يصح أساس البناء فلن يصح بالتالي إقامة بناء عليه ، وإنما يكون مآله إلى الهدم؛ لأن ما لا أساس له فإن مصيره إلى الضياع.

ولعل من هنا نستطيع أن نفهم السر في أن القرآن المكي كان موجهاً في الكثير من الآيات إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله ورسوله؛ عقيدة الإيمان بالبعث واليوم الآخر؛ عقيدة الإيمان بالنبوة والوحي؛ عقيدة الإيمان بما صح من كتب الله السابقة كالتوراة والإنجيل وألواح موسى وزبور داود.

خاطب القرآن الكريم أهل مكة بأصول الاعتقاد باعتبارهم الجيل الأول الذي تلقى الخطاب عن الرسول ﷺ ، وعاصر نزول الوحي وعاشه ، ومن فضل الله ورحمته بهم أنه خاطبهم بآياته القولية النظرية التي نبهتهم وأرشدتهم إلى قراءة آيات الله في أفعاله الكونية ، تأمرهم بقراءة أفعاله في كونه ، وتدبر آياته المنظورة لهم والمشهودة بأعينهم في هذا العالم: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: 17 - 20).

هذه الآيات الكونية التي تشكل بمفرداتها البيئة المحيطة بهم في صحراء مكة من الأرض والجبال والنبات والحشرات والحيوان والأفلاك ، فلم تسرح بهم الآيات في تهويمات عقلية ولا خيالات فلسفية ، وإنما نبهتهم إلى النظر في البيئة التي يعيشونها؛ لأن القراءة الصحيحة لهذه الآيات الفعلية المحيطة بهم في هذا الكون سوف تقودهم - إن صحت القراءة - إلى الإيمان بآيات الله القولية في القرآن الكريم أن يؤمنوا بأن محمداً ﷺ نبي الله ورسوله ، أن يؤمنوا بالبعث بعد الموت.

والمطلوب من القارئ لآيات الله الكونية في هذا العالم أن يخلص العقل

من الشكوك والأوهام لتكون القراءة صادقة وصحيحة، كما قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِدًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿(الملك: 3 - 4)

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: 37).

فالقراءة الصحيحة شرط للوصول إلى الفهم الصحيح والنتائج المطلوبة، وهذا كان موضع حرص شديد واهتمام كبير من الخطاب القرآني لكل قارئ أو راغب في القراءة، فجاءت الآيات القرآنية تعدد آيات الله الكونية على العقل الخالي من الشبهات، وتذكر المسلم بها، ثم تختم الآية بهذا اللون من الخطاب الإرشادي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: 79)، ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 3)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: 21).

ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم وأوامره للمسلم أن ينظر في عالم الشهادة، وأن يتأمل مفرداته وأنواعه، وأن يجول بناظره في هذا العالم، من سمائه إلى أرضه، وأن يعتبر هذا العالم معرضاً تعرض فيه الصنعة الإلهية بكل أنواعها ومفرداتها، ثم يتأملها العقل المسلم، وأن يقرأ كل عقل منها على قدر استطاعته من المواد للتأمل والتدبر، وأن يقارن بين أوامر القرآن النظرية، التي أمرتنا بتدبر هذا العالم باعتباره آيات الله الفعلية ليجد أن هذا العالم أشبه بالمعمل، الذي يتخذ العالم محراباً لإجراء تجاربه العلمية؛ ليصل من هذه التجربة إلى اليقين الذي يريده.

نعم ما أشبه هذا العالم بالمعمل، الذي تمثل كل مفرداته تجربة حية يؤسس عليها يقين المسلم، وعلى القارئ لهذه الآية أو تلك أن يحسن القراءة،

كما أن على العالم في معمله أن يحسن إجراء التجربة مرات ومرات لكي يطمئن على صدق معطياتها: ﴿فَأَجْعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثُمَّ أَجْعِ الْبَصَرَ كَرْنَيْنِ ﴿(الملك:3- 4) إذا أراد أن يصل إلى نتائج يقينية.

إن ما ذكره كتاب الله المسطور من صفات الخالق سبحانه وتعالى، من العلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، والمشية العامة وغيرها من صفاته العليا قد فسرهما كتاب الله المنظور، قد فسرهما عالم الشهادة تفسيراً عملياً، وجسدتها مفردات الكون كتطبيق عملي لما جاء ذكره في القرآن نظرياً، ليكون كتاب الله المنظور شاهداً عملياً بما جاء به كتاب الله المقروء، فهذا آية كونية منظورة، وذاك آية قرآنية مسطورة.

وكلا الكتابين يصدق بعضهما بعضاً، وكأن كتاب الله المنظور جاء تصديقاً عملياً لكتاب الله المسطور، وكانت العلاقة بينهما أشبه بعلاقة التجربة العملية بالنظرية العلمية، فإن التجربة الصادقة هي التي ترفع مستوى النظرية العلمية من مجال الفرض العلمي الظني إلى مقام الحقيقة العلمية اليقينية - ولله المثل الأعلى في ذلك - فإن كلام الله المقروء حق في ذاته سواء صحت تجربة القارئ لعالم الشهادة أم لم تصح، وصدق الله العظيم ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: 11).

- ضرورة الجمع بين القراءتين:

إذا كان القرآن الكريم هو الذي أرشدنا في آياته الكريمة إلى ضرورة الاهتمام بقراءة عالم الشهادة، فمما لا شك فيه أن إغفال المسلمين لهذه القراءة الكونية يعتبر إهمالاً لأوامر القرآن وتغافلاً عنها. ولو لم تكن قراءة عالم الشهادة على هذه الدرجة من الأهمية لما لفت القرآن

الكريم نظر المسلمين إلى أهميتها، وما أمرهم بها، ولا التأمل في هذا العالم، ولا توعدهم بالعقاب إن هم تغافلوا عنها؛ فإن كثرة الأوامر الإلهية في القرآن الكريم بذلك تدل على أن قراءة عالم الشهادة أمر إلهي نتقرب به إلى الله كما نتقرب إليه سبحانه بالصلاة والصيام والزكاة، فهذا أمر إلهي وذاك أمر إلهي، ولا يكون أحدهما بديلاً عن الآخر في تنفيذ المنهج الإلهي لعمارة الكون وتسخيرها لصالح الإنسان، ولا يكون أحدهما كافياً عن الآخر في حسن التقرب والتعبد لله؛ لأن القرآن الكريم هو الذي أقسم في آياته المقروءة بآيات الله المنظورة على أن القرآن حق، وأنه وحي الله إلى نبيه ﷺ: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصِّرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الحاقة: 38-40)، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم: 1-4).

ومعلوم عند كل عاقل أن القرآن لا يقسم إلا بما عظم شأنه عند الله وعلا قدره عند الناس.. ويقسم القرآن بالكون على ماذا؟ إنه يقسم بعظمة الكون على صدق القرآن في نفسه، إنه حق من عند الله وليس من عند محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن.

وليس بعد هذا القسم دليل على اهتمام القرآن بعالم الشهادة ودليل على ضرورة الاهتمام به، وضرورة قراءته لتقف على مكنون أسرار الله فيه، إن هذين الكتابين يمثلان لحياة المسلم جناحي الطائر، فإن الطائر لا تستقيم حركته في الهواء إلا إذا استعمل جناحيه معاً، يحلق بهما في الفضاء؛ لكي يعبر مفازات الصحراء وأعالي الجبال لكي يصل إلى تحقيق غايته ومقصوده، كذلك حياة المجتمع الإسلامي لا تستقيم أبداً إلا بحسن قراءة هذين

الكتابين، اللذين يصدق بعضهما بعضاً، ويعضد أحدهما الآخر، ويأمر أحدهما بقراءة الآخر.

وكما جمع الخطاب الإلهي بينهما في آيات الله القولية المقررة يجب على المسلم أن يجمع بينهما، يقرأ الكتابين قراءة توحيدية، بيتغي من ورائها تحقيق الوظائف الكونية التي سبقت الإشارة إليها، ووظيفة التسخير، ووظيفة التعمير، وما لم تكتمل هذه العناصر كلها في قراءة المسلم لهذين الكتابين فإن قراءته تكون ناقصة، ويترتب بالضرورة على هذه القراءة الناقصة نقص آخر وقصور في الواقع الذي يعيشه الإنسان في حياته اليومية والاجتماعية، ونقص في علاقته بالكون، وقد يترتب على هذا النقص في القراءة نقص في حاجة المسلم أن يمد يده للآخر من الذين أجادوا قراءة عالم الشهادة؛ ليطلب منهم ما عجز هو عن قراءته وتحقيقه، وما أسفرت عنه قراءته القاصرة من آثار وسلبات تتمثل أحياناً في الحاجة إلى العلم الذي عجز عن الوصول إليه بسبب قصور قراءته، أو بسبب تقصيره في قراءة آيات الله القولية، وأحياناً تترك هذه القراءة القاصرة آثارها السيئة فقراً وجهلاً وتخلفاً عن ركب الحضارة الإنسانية، وهذا أمر واقع لا محالة لكل من قصر في قراءة أحد هذين الكتابين، وهذا كله واقع في حياة المسلم المعاصر.. فهناك من قصر في قراءة الكتابين معاً... وهناك من قصر في قراءة أحدهما... وهناك من عجز عن القراءة بالكلية.

وفي معظم الأحيان فإن المسلمين جعلوا قراءة الكتاب المسطور بديلاً عن قراءة الكتاب المنظور، مكتفين بذلك لتحقيق مقاصد القرآن الكريم في العبادات والمعاملات والشعائر والطقوس الدينية، ناسين تماماً أن القرآن الكريم أمرنا بالتعبد لله بحسن قراءة الكتاب المنظور، كما أمرنا بالتعبد

بحسن قراءة كتابه المسطور، وأن التقصير في قراءة أحدهما أو إهماله بالكلية يعتبره القرآن نقصاً ونكوصاً عن أداء أوامر الله وعبادته، وعلى كل ذي عقل مسلم أن يسأل نفسه: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: 43)، وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: 24)، وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق: 5)؟ إلا أن إهمال المسلم أو تقصيره في أداء الصلاة سوف يعاقب عليه إن لم يتب وتقبل توبته، وعقابه يكون خاصاً به هو، وإنه عقاب فردي.

أما إهمال الأمر الإلهي بالنظر في آيات الله الكونية سوف تجنى ثمرته الأمة كلها في الدنيا تخلفاً وفقراً وجهلاً، ويحاسب عليه المسؤولون أمام الله من العلماء والحكام، يُحاسب كل منهما على قدر مسؤوليته؛ فالعقاب في الدنيا عقاب جماعي، وفي الآخرة عقاب فردي، ومن هنا كان من واجب المسلمين أن يجمعوا بين قراءة القرآن الكريم تدبراً وتفكيراً وفهماً وفقهاً وقراءة الكون كشفاً عن قوانينه وتأملاً في آيات الله المبتوثة في مفرداته، وأن يحسنوا قراءة هذا الكون؛ لأنه المصدر والمنبع الذي به قوام حياتهم زراعة وصناعة وتجارة، وعلى قدر تقصيرهم في القراءة الكونية تكون آثارها السيئة في حاجتهم، ويكون فقرهم وجهلهم، ويكون عوزهم إلى (الغير).

ومن فضل الله على الإنسان أن مفردات الكون لا تبخل على قارئها بالعتاء والسخاء، فهي أجود من الريح المرسلة لكل من نظر إليها وأحسن التأمل فيها ليتعرف عليها وعلى خصائصها، ويتعرف على القانون الحاكم فيها والنظام العام الحاكم لمسيرتها، من حين نشأتها إلى نهايتها، وكيف

تؤدي وظائفها؟ وكيف يفيد الإنسان منها؟ وكيف يسخرها لصالحه في حياته اليومية؟ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل كل ما على الأرض ذلولاً للإنسان، طيعاً له، طوع إرادة الإنسان منه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: 15)، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَعِلَادِهَا طُوعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: 11).

من هنا فإن مفردات عالم الشهادة، من سمائه إلى أرضه، وقوانين العلم بعالم الشهادة، ونتائج هذا العلم تكشف عن نفسها، وتبوح بأسرارها لكل من طلب ذلك منها بالبحث والتتقيب وطول النظر.. ولقد اعتبر الإسلام أن معاناة الباحث في معمله طلباً للكشف عن أسرار هذا العالم عبادة لله، وجعل مداد العلماء مساوياً لدم الشهداء في ساحة الجهاد في سبيل الله، وجعل تحصيل العلم الكوني بعالم الشهادة مفتاحاً طبيعياً لخشية الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر: 27- 28)، وقد ورد في الأثر «أن مداد العلماء يساوي دم الشهداء عند الله يوم القيامة».

- إعادة القراءة:

من هنا كانت الحاجة ملحة إلى إعادة قراءة القرآن الكريم بوعي، نعيد إليه ما أهمله التاريخ من الخصوصية الإسلامية، التي تؤكد ذاتية الأمة وأصالة قيمتها الحضارية، التي تجعل من طلب العلم عبادة، وتجعل

ممارسة العلم تسبيحاً لله وتقديساً له.

إن أمتنا الإسلامية تعيش الآن بؤرة الصراع العالمي فكراً وثقافة وحضارة، وما لم تتشبث الأمة بخصوصيتها الثقافية، وتعبّر عن ذلك في فكرها الفلسفي؛ فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها.

فمن المعلوم أن هذه الأمة تحمل إلى العالم كله رسالة النور وطوق النجاة، وتعيش مع الحضارات الأخرى سنة التدافع الوجودي فتأخذ وتعطي، وتتأثر وتؤثر، وفي هذه الحوارات الدفاعية يتنافس المتنافسون، ويتمسك كل فريق بخصوصيته ويعتز بهويته، وهذا أمر مشروع لكل صاحب فكرة ومذهب، مادام يملك برهان الحق ودليل الصواب، ونحن أقدر الناس على ذلك؛ لأننا أصحاب كتاب ودعاة حق وأهل عقيدة سماوية لها منهجها في تفسير الوجود والإنسان والمبدأ والمصير وعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع، وينبغي أن يتأسس على ذلك المنهج تحليلات المفكر المسلم للوجود بداية ونهاية ووظيفة، ويستمد منه نظره البرهاني في تفسير العلاقات السببية المتبادلة بين ظواهر الكون وعلاقة الإنسان بذلك.

إن هذا المنهج القرآني في قراءة الكون يتميز عن المناهج الفلسفية الأخرى بأنه يحمل في دلائله عوامل البرهنة اليقينية على صحة العقيدة التي يتناولها إقناعاً للعقل واقتناعاً بالقلب واطمئناناً للنفس، بحيث تكتمل في الإنسان قناعات كل إمكاناته المعرفية العقلية والوجدانية على سواء، كما يتميز هذا المنهج بنظرته التحليلية للوجود الإنساني عن الفلسفات الأخرى التي تجعل من الوجود والإنسان كماً مؤقتاً وكيفاً عابثاً لا غاية له في الوجود إلا لحظة يعيشها الإنسان يشبع فيها رغباته الحيوانية، ثم ينتهي

الموقف كله بنهاية مأسوية عبثية هي الفناء المطلق .. أشبه بفصول الملهاة.
إن قراءتنا للكون، من خلال المنهج القرآني، تجعل للوجود معنى وللإنسان وظيفة، فالوجود لم يُخلق عبثاً لا غاية له ولا هدف منه، بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب، وعالم الشهادة في المنهج القرآني لم ينفصل في حكمته الوجودية عن عالم الغيب، وليست المادة في المنهج القرآني مستقلة في وجودها عن قانونها الغيبي الحاكم لها، والمتحكم فيها، كما هو الشأن في المذاهب المادية، قديمها وحديثها.

والوجود في فلسفتنا ليس مبتوت الصلة بخالقه، كما هو الشأن في فلسفة أرسطو ورأيه في المحرك، الذي لا يتحرك، وإنما هو آية دالة على خالقه، وتحمل مفرداته دلائل صفاته، وتجليات أسمائه الحسنى من العلم والحكمة والإرادة والقدرة... الخ.

والوجود في فلسفتنا صفحة معروضة على العقل الإنساني ليقراها بتكليف إلهي: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: 1)؛ فالخلق كله من عالمه العلوي والسفلي صفحة معروضة على العقل أن يقرأها باسم (ربك) وليس باسم المادة ولا باسم الصدفة ولا باسم الطبيعة أو الدهر، يقرأ فيها ويقراً منها على قدر استطاعته.

والوجود في فلسفتنا يحمل في قوانينه برهان العقل على فساد رأى القائلين بالصدفة أو المادة أو الدهر، فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وكل شيء عنده مقدر، ومهمة الفيلسوف أن يجلي هذه المعاني في تحليلاته الفلسفية، ويعيد إليها اعتبارها المهدر في تفسيراته العلمية، وتلك مهمة لا يفتن إليها إلا أولو الألباب، وأصحاب العزائم والنوايا الصادقة.

إن هذه القراءة الكونية، التي ينبها إليها القرآن الكريم، تتميز بأنها

يشترك في قراءتها الحس والعقل والقلب، فالكون صفحة مقروءة أمام العقل والقلب معاً، فحين ينظر العقل ويتفتح القلب الواعي تنفع الذكرى، وتثمر في القلب أثراً إيمانياً، يجعل للحياة معنى وللوجود قيمة؛ لأنها تصل قلب الإنسان العارف بالكون، الذي هو موضوع المعرفة، حيث تباشر الحواس معارفها الجزئية من رؤية السماء سقفاً مرفوعاً وسقفاً محفوظاً من الخلل، ويشهد السماء مزينة بالآيات التي تبعث في النفس البهجة والسرور، فالقمر (نور) في الليل، والشمس (ضياء) في النهار، والنجم علامات وهداية للسراة ليلاً في البر والبحر.

هذه اللوحة الرائعة يقدمها القرآن الكريم من خلال مشاهد متعددة في القرآن المكي، وفي تناسق عجيب؛ ليربط قلب المسلم بهذه المشاهدات فتنبعث فيه عوامل الإيمان واليقين، وتربط عقله بالنظر في هذه الظواهر طلباً لمزيد من التعرف عليها؛ لتصل بين الإنسان وهذه الظواهر في وحدة معرفية يجمع فيها المسلم بين الذات العارفة - الإنسان - وموضوع المعرفة معاً، فالإنسان ليس غريباً عن هذه الشواهد؛ لأنها مسخرة لأجله، وهو مطالب بالكشف عنها وحسن الإفادة منها، ولا تستقيم حياته على الأرض إلا بذلك، ولا بد له من وصل ما انقطع بينه وبينها في الماضي حتى يواصل مسيرته، ويلحق بركب الحضارة الإنسانية، ولا بد للمسلم من الصلة العلمية الوثيقة بها، فكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك أو خاصة من خصائص الكون وما فيه يجب أن تتحول إلى موضوع للبحث العلمي يوثق صلة العقل المسلم بهذا الكون بدلاً من هذه الغربية والقطيعة العلمية بين المسلم وعالم الشهادة، والتي أصبحت ظاهرة لافتة للنظر في واقع المسلمين.

إن هذا الكون كتاب مفتوح، قابل لأن يُقرأ بكل لغة، وفي ظل كل ثقافة وحضارة، ولأهل كل دين، ويكشف عن أسرارهِ بكل وسيلة متاحة، ويستطيع أن يقرأه ساكن الكوخ وساكن القصور، وأن يطالع مفرداته كل عاقل، مسلماً كان أو غير مسلم؛ ليجنى الثمرة وينعم بخيراته، فيجد كل امرئ فيه زاده العلمي والإيماني معاً، حين يطالعه بقلب مفتوح وعقل صحيح متطلع إلى الحق، كل عالم يطالعه بقدر استعدادهِ وعلى قدر استطاعته، ولذلك فإن الآية الواحدة تحمل معها البرهان العقلي لطالب العلم واليقين الإيماني لطالب الحق، والمنهج القرآني يجمع بينهما في سياق واحد، فلا ينقض البرهان العلمي اليقين الإيماني بل يقويه ويرفده ولا ينقض اليقين الإيماني البرهان العلمي ولا يعارضه بل يدعمه ويؤيده، ويمده بنور البصيرة ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (ق:8).

إن نور البصيرة، التي تساعد العقل في الربط بين الجزئيات المتناثرة والمفردات المتنوعة فيربط بعضها ببعض، ويضم شتاتها في وحدة متناسقة، تشير إلى وحدة المصدر، ووحدة النظام الحاكم، ووحدة الخالق كحقيقة كبرى، تسوق إليها هذه المقدمات الجزئية والمفردات المتنوعة على أنها الحقيقة الكبرى والمقصد والغاية؛ إنها تصل القلب (المتبصر) بنواميس الكون، فتذكره بالحكمة الكامنة والعناية الإلهية المبتوثة في كل جزئياته، ما دق منها وما عظم. فهي ليست معلومات جامدة يتلقاها العقل دون أن تسرى آثارها إلى القلب، فتثير فيه عوامل الإيمان، ولذلك فإن القرآن سماها آيات وآية ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر:17)؟
والله أعلى وأعلم.